# الجبـــل

## لفتحـــى غانـــم

قصة الجبل ، قصة محقق توفده السلطات الحكومية ليحقق فى اختلاسات وسرقات من أخشاب وطوب وأدوات البناء فى القرية النموذجية التى تبنيها الحكومة لأهالى قرية الجرنة ، وهى قرية تقع على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة مدينة الأقصر وفى منطقة مزدحمة بالآثار الفرعونية ، وأهلها يرفضون الانتقال من قريتهم الجبلية إلى هذه القرية النموذجية حيث تريد لهم السلطات الحكومية أن يعيشوا . وكان هذا التحقيق بناءً عن شكوى تلقتها إدارة التحقيقات بوزارة المعارف موقعة باسم ( حسين على ) أحد أهالى قرية الجرنة ..

وفى بدء القصة نجد مدير التحقيقات يستدعى فتحى غانم – فالمؤلف يقوم بدور المحقق فى القصة – ويبلغه أنه سيكلفه بعمل يعرّضه لخطر الموت ، خطر القتل فى جبل بالصعيد ، ولهذا وقع عليه اختياره لأنه أوّلاً أعزب كما أنه يبدو ضخمًا كالملاكم أو المصارع . وبهذه الكلمات ينجح فتحى غانم فى إثارة حب الاستطلاع لدى القارئ وإغرائه بمتابعة أحداث القصة التى تشبه فى سطورها الأولى بداية القصص البوليسية . والواقع أن أوّل ما يلحظه القارئ هو نجاح فتحى غانم فى استخدام هذا اللون من التشويق والإثارة من أول القصة إلى آخرها بحيث ندرك أنه مؤلف مسيطر على هذه الناحية من التكنيك القصصى .

ولكن خلال هذه الكلمات نجد أن المؤلف يوضح أن لعقلية المحقق دخلاً كبيرًا فى تفسير القانون وتطبيقه ، فهو يؤمن بأن القانون لا ينفصل عمن يطبقه ، فإذا ذهب أحد المتزمتين للتحقيق فى إحدى القضايا الخلقية بمدرسة للبنات فإنه سيطالب فى نهاية التحقيق بإجراء مختلف عما لو قام بالتحقيق أحد الشبان المتحررين . وهذا التوضيح له أهميته فى إدراك الاتجاه الذى سلكه المؤلف المحقق فى القصة ، والذى ترتبت عليه نتائج كان يمكن أن تكون مختلفة تمامًا فى حالة وجود محقق آخر .

ويسافر فتحى غانم إلى قرية الجرنة ليقوم بتحقيقه ، ولم يكن القطار مجرد وسيلة للمواصلات تنقله من العاصمة إلى الصعيد ، بل كان وسيلةً فنيةً كذلك ، فهو ينقلنا معه ، وهو ينقلنا أوّلاً عن طريق اللغة التى تنطقها هذه السيدة الأسيوطية المسافرة والتى تتكلم عن باريس بفرنسية عذبة ثم ما تلبث أن تتحدث بالصعيدية ، وهكذا أوضح لنا فتحى غانم أن لكل مستوى من مستويات اللغة وظيفة فنية ، وكانت اللهجة الصعيدية هى إحدى وسائله الفنية التى نقلنا بها من القاهرة إلى الصعيد . بل إن المؤلف يقول لنا صراحةً «كنت أنتقل محمولا بهذه اللهجة الصعيدية إلى أقصى الصعيد والقطار لم يتحرك بعد من محطة القاهرة »[1] .

ثم هو ينقلنا من القاهرة إلى الصعيد عن طريق الانتقال من عربات الهواء المكيف فى القطار إلى عربات الدرجة الثالثة فى القطار نفسه ، الانتقال من الحقائب الجلدية الفاخرة المكتظة بالملابس الصوفية والحريرية وزجاجات العطر وأربطة العنق والأرواب دى شامبر إلى السلال الملأى بالشاى والسكر والبيض والملقاة على المقاعد الخشبية ...

ثم هو ينقلنا من العاصمة إلى أقاصى الصعيد عندما يتحرك القطار ويبدو النخيل العالى والقرى السوداء والماشية التى ترعى ... وهكذا تحولت عربة تكييف الهواء إلى جزيرة صغيرة وسط بحر غريب من الخضرة والسواد والجبال الصفراء العالية عند خط الأفق . وهكذا أصبح كل ما يحيط به هو عالم ركاب الدرجة الثالثة .. إنهم الآن يتنفسون بحرية أكثر ويستقبلون بأعينهم مناظر مألوفة أكثر ، ونحن فى طريقنا إليهم حيث يعيشون هناك .. فى قرية الجرنة .

ونزل فتحى فى الأقصر ضيفًا على وكيل النيابة ، ووكيل النيابة هو أوّل من لقيه ممن يمثلون السلطة الحاكمة فى هذا الصعيد النائى . وقد حاول فتحى غانم أن يعطينا الصورة الخلفية أو الداخلية لهذا « الوكيل النيابة » من ناحيتها النفسية والمادية . فمن الناحية النفسية نجد أن وكيل النيابة هذا يحرص على أن يبدو بمظهر وقور أنيق متعال يضطره إلى عدم مخالطة الناس ، وهذا المظهر نفسه هو الذى تسبب فى خلق الصورة الداخلية المناقضة ، فهو يعانى من شعور مزمن بالوحدة ولهذا فهو « مسكين وحيد داخل نفسه ، يبحث عن متعة أو تسلية خفية لا يدركها أحد من الناس كأن يمتع نفسه برؤية الأميرة »[2] .

---

(١) فتحى غانم ، الجبل ، العدد ٥٩ من سلسلة الكتاب الذهبى ، دار روزاليوسف ١٩٥٩ ، ص ١٣ .

(٢) الجبل ص ٢٠ .

أما الصورة المادية الداخلية فلا تقل تناقضًا ، فالمؤلف يقدمه لنا واقفًا فى منزله بالفانلة واللباس ثم متجولاً بقبقاب خشبى ، مناقضًا بذلك مظهره وهو فى المحكمة ينظر إلى المتهمين فى تعال وغطرسة وكبرياء . وفى حجرة نومه سرير سفرى كسرير المستشفى ، ومسمار مثبت فى الحائط علق عليه كل ملابسه المتسخة ، ومقعد خشبى قاعدته مكسورة لا يصلح للجلوس فاستعمله كدولاب[1] ولكن عندما ارتدى ملابسه « تحوّل فجأةً إلى رجل أنيق ، وضع الطربوش فوق رأسه فأصبح وقورًا ، وتغيرت ملامح وجهه كأنه لم يكن منذ دقائق يصنع الشاى فوق وابور الجاز وهو بالفانلة واللباس » .

وكأنما فتحى غانم حريص على أن يحطم هذه الهالة الظاهرية لممثل السلطة الحاكمة ، فيطلعنا على فوضاه الداخلية ، وهو لا ينكر أن فى حياة الشعب فوضى أيضًا ، ولكن الفرق بينهما أن فوضى الشعب غير مستترة بينما فوضى وكيل النيابة يقنّعها صاحبها بعطر الإيتكنسون والصوف الإنجليزى والطربوش[2] ، وهذا التحطيم لقداسة السلطة الحاكمة هو أوّل علامات الاتجاه الذى سيسلكه المحقق فتحى غانم .

والشخصية الثانية التى قابلها فتحى غانم وتمثل السلطة الحاكمة هى شخصية الأميرة أخت الملك . وقد قدمها لنا المؤلف فى أوّل الأمر وهى تجرى وخلفها يجرى ثلاثة شبان يرتدون القمصان المشجرة وجسمهم متراخ ونظراتهم قلقة بلهاء ، ثم قدمها لنا مرةً ثانيةً وهو فى المركب يجتاز النيل إلى الشط الغربى حيث تقع قرية الجرنة ، فقد كان القرويون يتحدثون عن صلاتها الجنسية « كل يوم يا بوى .. يجيبولها ضابط حليوة من العيال بتوع مصر و ... ع تبدلهم »[3] .

وكان وجود الأميرة بالأقصر قد سلبه مهابته وسلطانه كمحقق ، فهو عندما يقصد مفتش الآثار يجده مع سمو الأميرة ، ويتحدث مع السعاة فيجيبونه بلا اكتراث كأنهم فى حماية سمو الأميرة[4] . ولهذا عندما سمع القرويين يعرون الأميرة ويتحدثون عنها باشتهاء اتخذ موقفه إلى جانبهم بلا تردد » وشعرت براحة نفسية غامرة وأنا أستمع لكلام العامل . حطم الرجل بكلماته البسيطة المعبّرة تلك الرهبة التى شعرت بها عندما ران علينا الصمت وهى تمرّ أمامنا فى بهو فندق ونتر بالاس فى الليلة الماضية ، كما حطم الرجل تلك الهالة التى أحاطت بالأميرة وهذا الجو من التعالى والكبرياء والذى ساد تفتيش الآثار لمجرد أن كبير المفتشين ذهب ليشرح لها آثار مدينة

---

(١) الجبل ص ٢٢ .
(٢) الجبل ص ٢٦ .
(٣) الجبل ص ٢٧ .
(٤) الجبل ص ٢٥ .

هابو »[1] . وهكذا حطم فتحى غانم مهابة رمز آخر من رموز السلطة الحاكمة ، بل اعترف هذه المرة أنه أحس إزاء ذلك براحة نفسية غامرة .

وعندما وصل إلى الشط الغربى ركب لورى الآثار حتى وصل إلى القرية النموذجية ، وهناك تقابل مع ثالث ممثل للسلطة الحاكمة ، ذلك هو المهندس الذى أشرف على بناء القرية النموذجية . والواقع أننا لا نستطيع القول إن المهندس ينتمى إلى السلطة الحاكمة تمامًا ، ولكننا نستطيع القول بأن الفئة الحاكمة استعانت به لينفذ لها أغراضها واستعان هو بها لينفّذ بدوره مشروعاته الفنية ، فهو منتفع ومنتفع به . وقدمه لنا المؤلف المحقق حين لمحه أوّل مرّة فى بهو فندق ونتر بالاس ، باعتباره « رجلاً شاحبًا ذا صوت ناعم لين ، فيه ملل وسأم ، وكان يبدو عصبيًّا رغم هدوئه الظاهرى »[2] .

ونقطة الضعف فى المهندس ، تختلف عن نقطة الضعف فى وكيل النيابة والأميرة ، ذلك أنه رجل يعيش فى عالمه المثالى لا يهمه مدى ملاءمته لعالم الواقع . فقد بنى قرية بيوتها مكيفة الهواء ذات جامع تنسجم فيه مساقط الضوء مع خطوط البناء وحركات المصلين كأنهم يرقصون باليه ... قرية رائعة ومهندس مخلص ، ولكنه لم يسأل نفسه قبل أن يبدأ هذا العمل ماذا يفعل أهل الجبل عندما يسكنون هذه القرية النموذجية الرائعة ويبتعدون عن الجبل مصدر رزقهم ؟ وهو السؤال الذى اكتشفه المحقق فتحى غانم فيما بعد فحدد موقفه نهائيًّا كما سنرى . وهكذا كان المهندس شبيهًا إلى حدٍّ كبير بأصحاب المدن الفاضلة التى لا تصمدُ أمام التجربة الواقعية .

وقد استمع المحقق فتحى غانم إلى قصة أهل الجبل من ثلاثة رواة ، كان أولهم هو هذا المهندس ، وقد روى قصته للمحقق وهما يلعبان الشطرنج وينتظران هجومًا ليليًّا من أهل الجبل ، ( وهنا نلمح مثلاً آخر لأسلوب التشويق الذى يسود القصة ) وكان من الطبيعى أن يقف المحقق موقف المستريب من قصة الجبل كما يرويها المهندس . لا لأن هذه هى طبيعته باعتباره محققًا كما يقول ، بل لأن المهندس كان متعاونًا مع السلطة الحاكمة ومنفذًا لأغراضها ، وهى السلطة التى حرص المحقق فتحى غانم على تحطيم قداستها وتعريتها وكشف فوضاها وانحرافاتها..

ولهذا فنحن لا نستمع إلى قصة المهندس كما رواها على لسانه مباشرة ، بل نسمعها منقولةً

---

(١) الجبل ص ٢٧ .  (٢) الجبل ص ٢١ .

إلينا على لسان المؤلف المستريب ، ولهذا فنحن نجد فى قصة المهندس أن العمدة ورجاله يتندرون بغضبه عندما يكتشف أنهم غشّوا سائحًا وباعوه تمثالاً مقلدًا على أنه أثر فرعونى ؛ ولهذا نجد الحديث عن أسلوب التفرقة الذى لجأ إليه المهندس بين أهل القرية ، فعيّن منهم مقاولاً للأنفار الذين يعملون فى بناء القرية النموذجية وقد أخذ هذا المقاول يحاول عبثًا أن يحرض الأهالى على السكنى فى هذه القرية . ولو كنا نتلق وجهة نظر المهندس مباشرة لما وجدنا أمثال هذه التعبيرات التى تدل على وجهة نظر معادية للمهندس .

وفى رواية المهندس يتضح أن هناك صراعًا بينه وبين عمدة الجرنة ، وهو رمز للصراع بين السلطات الحاكمة وأهالى الجبل ، ولكن يتضح لنا أن أهل الجبل يتصارعون أيضًا مع الجبل نفسه ، ويتضح لنا أن هذا الصراع الأخير هو الصراع الدرامى الحقيق فى هذا العمل الفنى . ذلك لأن تحيز فتحى غانم ضدّ السلطة الحاكمة وانضمامه إلى أهل الجبل – كما سنرى – أفقد الصراع بين الحكومة وأهل الجبل عنصره الدرامى ، وهو تحيز برره أن المؤلف أحد شخصيات القصة له الحق فى أن يعجب وأن يتهكم . أما الصراع بين أهل الجبل والجبل نفسه فأشبه بصراع الإنسان مع القدر فى الدراما اليونانية ، « إن الكهوف هى المداخل الطبيعية للقبور الفرعونية التى لم تكتشف بعد ، وكل أسرة لا تفكر فى أنها تسكن فى كهف بل هى تقيم على باب كنز .. على باب الجنة »[1] . وعندما يتقدم الليل ، تجتمع الأسرة ، رجالاً ونساءً وأطفالاً لينقبوا داخل الكهف ، يكحتون شهورًا وسنين بمعاولهم البدائية ضاربين فى الصخر الصلد ، مغامرين بحيانهم ، متحدّين الطبيعة فى صورة الحجارة الضخمة التى تقف بينهم وبين ما يريدون .. متحدّين لعنة الفراعنة التى يفسرون بها قتلاهم الذين يموتون تحت الحجارة التى تسقط فوقهم أثناء الكحت متحدّين مكر الفراعنة ودهاءهم فى حماية قبورهم »[2] .

وهذه الرواية الأولى كانت تمهيدًا ضروريًّا للروايتين التاليتين ، يروى إحداها العمدة ويروى الثانية حسين على الموقّع على الشكوى المرسلة إلى إدارة التحقيقات .

عندما نستمع إلى رواية العمدة لا نجد المؤلف يقف موقف المحقق المستريب كما فعل وهو يستمع إلى رواية المهندس ، بل لقد تضاءل المحقق بحيث ضاعت صفته تمامًا وأصبح العمدة

---

(١) الجبل ص ٤٥ .

(٢) الجبل ص ٤٦ وهنا نلاحظ ضعف الأسلوب الذى لا يتمشى مع الموقف الدرامى المعبّر عنه ، وواضح أن سبب الضعف هو كثرة استخدام الأسماء الموصولة فى الجملة الواحدة .

هو المسيطر على الموقف على عكس المفترض ، ولئن كان تجاهل هيبته كمحقق بسبب وجود الأميرة قد أثار فيه الحنق فإنه تقبل هنا تجاهل هذه الصفة برضى ودون أى احتجاج ، فهو يتحدث عن العمدة قائلاً : جذبنى بشدّة فوقعت على الأرض إلى جانبه وفرت السحالى مذعورة من حولى . كان العمدة العجوز رجلاً قويًّا ، ودبّت القشعريرة فى بدنى ، كنت أرتعد من كل شىء ، من البندقية ، والعمدة والسحالى ، والأرض التى وقعت عليها ، ولم يترك العمدة يدى ، تفرسنى بعينيه كأنهما مسماران يثقبان رأسى ، وتأنى وهو يحدّق فىّ دون أن يهتز له جفن أو رمش أو عضلة فى وجهه الخشن المجعد . وسألنى فجأةً فى صوت عميق كأنه صادر من بئر سحيق : إنت مين ؟ كان يسألنى وليس فى عينيه ولا فى وجهه ما ينم عن انفعال أو قلق .. كان وجهه جامدًا صلدًا كالصخر . وقلت محاولاً أن أكون هادئًا .. » [1] .

وهكذا نجد أن المحقق يصبح هو المحقَّق معه ، بل ويتلبس الحال النفسية للمحقق معه من خوف ودفاع عن النفس لاسيما حين أراد العمدة أن يتحقق مما إذا كان من رجال المهندس وعندما أراد أن يعرف عنوان عمله فى القاهرة . وهكذا أصبح العمدة هو الذى يقف موقف المتشكك ، نفس الموقف الذى كان يقفه فتحى غانم من المهندس منذ ساعات وهو يروى له قصة أهل الجبل . ولم يطمئن العمدة إلا حين أخذ عليه عهد الله أنه من مصر وليس من رجال المهندس [2] .

ولم تكن قصة العمدة كلها روايةً على لسانه ، بل إن جزءًا منها تم عن طريق المشاهدة الفعلية ، فقد مضى المحقق مع قافلة من النساء والرجال نحو المقابر ليشاهد بنفسه جسم الجريمة ، وهناك تكشفت له أشياء ، تكشف له أن الجبل هو الحائط الأخير فى حياة هؤلاء القوم . فقد « طردتهم ظروف الحياة من الحقول وأبعدتهم عن كل شىء ، وتقهقروا حتى أسندوا ظهورهم إلى الحائط .. إلى الجبل .. هنا وقفوا ليحاربوا من أجل بقائهم فى الدنيا » [3] .

وشيئًا فشيئًا يدرك قضية هؤلاء القوم وتتبلور كل المقدمات السابقة لكى يصرخ قائلاً : « صخور الجبل فى داخلها عرق أجدادهم وتعبهم ، تخفى الكنوز التى صنعوها وحملها الأغنياء – الأشراف – إلى مقابرهم ، ولقد جاءوا إلى الجبل وراء حقّهم الذى دفنه الأشراف ، يريدون استعادة الميراث الذى خلّفه لهم الأجداد » [4] .

---

(١) الجبل ص ٦٣ .
(٢) الجبل ص ٦٨ .
(١) الجبل ص ٧٣ .
(٤) الجبل ص ٧٣ .

ثم يتكشّف له شيء آخر ، يبدو أنه تكشف له من خلال عملية التعبير نفسها ، بحيث أصبحت عملية التعبير وسيلةً من وسائل المعرفة ، وهذه لاشك لحظة من لحظات التجلى التى يصل فيها الفنّان إلى قمة النشوة وهو يكتشف – من خلال عملية التعبير – دقائق ماكانت تتبدى له إلا من خلال التعبير نفسه . ذلك أنه خطر للمؤلف المحقق سؤال يقول عنه إنه خرج من عقله الباطن ( معبرًا بذلك عن لحظة الرؤيا التى عاشها أثناء عملية التعبير ) وقد خطر له هذا السؤال أثناء مشاهدته صور العمل فى الحقول الفرعونية مرسومة على جدران الكهوف ، ذلك السؤال هو ما أشرنا إليه سابقًا : ما العمل الذى ينتظر أهل الجبل لو تخلّوا عن كهوفهم وهبطوا إلى القرية النموذجية ؟[1] .

وانتابته رعدة ، هى فى الواقع رعدة الكشف عن هذا العمق الجديد للقضية – على حدّ تعبير المؤلف – وهو كشف حسم الأمر بالنسبة للمحقق وجعله ينضم نهائيًا إلى « المتهمين » ، ووضحت نتائج المقدمات البعيدة ، فها هو ذا المحقق الشاب المتحرر الذى يفضح الفوضى الداخلية لوكيل النيابة ويعرى الأميرة كأنثى ويكشف عن مثالية المهندس المنصرف عن عالم الواقع ، هاهو ذا نجده يستمع إلى إحدى الزوجات من أهل الجبل وهى تقول له إنها تعتبر مقابر الفراعنة بيوتها ، والبيوت التى بناها المهندس مقابر ، فيجيبها فى حماس : إن شاء الله مش ح تنزلوا البنايات وتفضلوا هنا زى ما انتم عاوزين . ثم يعلق على ذلك قائلاً : خرجت من طبيعتى كمحقق وأصدرت حكمًا فى القضية[2] .

وهكذا جلس « المحقق » يصغى إلى رواية العمدة وقد اتضح اتجاهه نهائيًا فى القضية التى يقوم بالتحقيق فيها . وعندما بدأ العمدة حديثه قائلاً إنه لا يهمه المهندس ولا الحكومة ولا الملك ، لم يعد هناك محقق ومحقَّق معه ، بل أصبح فتحى غانم واحدًا من المتّهمين « وتلفتُّ حولى فى جزع ، كأن هناك من يتجسس علينا . إن تحدّى الملك علنًا على هذا النحو قد يؤدّى إلى رفقى من وظيفتى ، وربما قبضوا علينا وألقوا بنا فى السجن ، أنا والعمدة »[3] . وهكذا استخدم ضمير المتكلم الجمع لأوّل مرّة وجمع بين نفسه والعمدة .

ويتطور الكشف عن شخصية العمدة شيئًا فشيئًا ، فإذا نحن أمام صورة بطولية ، فهو من الناحية الجسمية « طويل جدًا .. عملاق .. مارد »[4] . أما بطولته النفسية فتبدو فى موقفه من

---

(١) الجبل ص ٧٤ .
(٢) الجبل ص ٧٨ .
(٣) الجبل ص ٧٨ .
(٤) الجبل ص ٦٦ .

الأميرة حين أقبلت لتشرف على حفل افتتاح القرية النموذجية ، وقد قاطعها أهل الجبل فجلب الضباط فرقةً كبيرةً من فلاحى أحد الباشوات من الشاطئ الشرقى لاستقبال الأميرة على أنهم من أهل الجبل ، وإذا بالعمدة يقبل وحده فى بطولة لا تعرف الخوف ليتحدث إلى الأميرة ، وعندما يقبض على يدها ليحيّيها « أحسّت الأميرة بقوته فى ذراعها وفى ارتجاج ثدييها وفى تقلص بطنها وسرت الرعشة كالكهرباء فى ساقيها »[1] . وهكذا نجد فى هذا الالتقاء بين الأميرة والعمدة ، أنه بمقدار ما عرى فتحى غانم الأميرة كأنثى وهى ممثلة السلطة الحاكمة ، بمقدار ما أضفى ألوان البطولة والرجولة على العمدة رمز المتهمين وزعيمهم .

ولقد طلب العمدة من الأميرة أن تخبر أخاها الملك أن أهل الجبل ليسوا آثارًا بل هم كالشجر إذا انتقلوا ماتوا[2] . وهدد العمدة المهندس أنه لو بات الرجال الذين جلبهم من الشرق فستحدث معركة ، ولم يلبث المهندس والأميرة وأصدقاؤها الأمريكيون أن أذعنوا لإنذار العمدة ولجأ الجميع إلى شاطئ النيل كفلول جيش مدحور[3] .

وتبلورت صورة البطل فإذا المؤلف يقول : كنت أقول لنفسى لو سألنى أحد ما هو تعريف الرجل الحقيقى فى هذا العالم .. لأجبته على الفور .. إنه عمدة هذا الجبل[4] .

وفى الوقت نفسه بدأ المحقق يشعر بالقرف من مهمته : ما هذه السخافة التى جئت من أجلها ، ماذا أستطيع أن أفعل فى مشكلة من هذا النوع ، ماذا يريد منى مدير التحقيقات .. أيقنت أنى لا أقوم بتحقيق . إنى أقوم بتزوير مشاعر العمدة ومشاكل أهل الجبل ومتاعبهم التى يعانون منها ، وفقرهم الذى يقاسون منه ، وأملهم الذى يبحثون عنه فى بطن الجبل[5] . ثم يكتشف أن مهمته كمحقق هى طمس كل هذه الحقائق وتحويلها إلى أسئلة سخيفة ، وتخيل مدير التحقيقات يقول له ساخرًا « إنت عامل مصلح اجتماعى والا إيه ، دا معدش شغلك يا أستاذ ، أنت تحقق فى التهم الموجهة بس »[6] .

وهكذا وضحت المعركة النفسية على أثر تحوله من الجلوس على كرسى المحقق إلى الوقوف مع المتهمين . فيتخيل مدير التحقيقات يقول له : إحنا مالنا ومال إن كان فيه شغل وإلا مفيش .. بعدين نترفت كلّنا وتبقى مافيش حاجة اسمها إدارة التحقيقات .. لو وكيل

---

(١) الجبل ص ٨٥ .
(٢) الجبل ص ٨٦ .
(٣) الجبل ص ٨٨ .
(٤) الجبل ص ٨٨ .
(٥) الجبل ص ٨٨ – ٩٩
(٦) الجبل ص ٨٩ .

الوزارة شاف المذكرة دى .. ح يقول عليك شيوعى . ثم يقول : وسأكتب مذكرة أخرى خالية من كل الحقائق التى عشتها والتى أشعر بها محفورة فى قلبى ، وسأشم بعد ذلك رائحة عفن تتصاعد من داخلى ، رائحة ضمير ميت[1] . وهكذا اتضح أن السلطات الحاكمة تريد أسلوبًا واتجاهًا معيّنًا فى التحقيق ، وأن تنفيذ ذلك لا يمكن أن يتم إلاّعن طريق ضمير ميت عفن .

وكان لابدّ للمحقق أن يعود إلى الشط الشرقى لأن الليل قد أوغل ، وهنا تظهر على مسرح القصة شخصية الشيخ طلباوى الذى طلب منه العمدة أن يقوم بتوصيل المحقق . والشيخ طلباوى يكاد يكون المتعلم الوحيد بين أهل الجبل ، وهو أخو زوجة حسين على الموقعة باسمه الشكوى ، ومنه يعرف المحقق حقيقةً جديدةً ذلك أنه هو كاتب الشكوى ، ويعطينا المؤلف صورة مقززةً له لأنه لا يوافق أهل الجبل على رأيهم ؛ ولأنه ينشئ قصيدة ترحيب بالأميرة فتنفحه خمسة جنيهات ، فهو أقرب إلى شخصية الانتهازى فى قومه .

ثم يظهر البطل الثانى فى قصتنا ، وهو حسين على ، يبرز فجأةً من الظلام ، بحيث انزعج الشيخ طلباوى حتى أنه فقد لغته الفصحى ( ونلاحظ أن اختلاف اللهجات فى اللغة له هذه المرة وظيفة نفسية ) . وأصر حسين على انصراف الشيخ طلباوى لينفرد بالمحقق الذى انضم إلى المتهمين . وهكذا نستمع إلى الرواية الثالثة عن أهل الجبل . ولقد استمعنا إلى الرواية الأولى من المهندس ليلة كاملة ، واستمعنا إلى الرواية الثانية من العمدة نهارًا كاملاً ، وها نحن نستمع إلى الرواية الثالثة فى الليل مرةً أخرى .

وإذا كان العمدة بطلاً بين أهل الجبل فهو كذلك بحكم منصبه ، أما حسين فهو بطل بشخصيته وبمدى استقطابه لمشاعر أهل الجبل : صوته القوى ونظراته الثابتة وكبرياؤه .. إن هذا النوع من الرجولة نفتقده فى حياتنا فى القاهرة .. هذه الصراحة المباشرة ، هذه القدرة الخارقة على المواجهة وتبادل الثقة بسرعة وبعد مجرد ترديد قسم أو عهد[2] .

ولكى يكون المحقق فى نفس هذا المستوى الذى يشيد به يجب أن ينزل عن صفته كمحقق ، وكان قد نزل عنها فى الواقع كما رأينا . وتهكم فتحى غانم فى قصة الجبل من أوّلها إلى آخرها أنه كمحقق لن يحصل على أية معلومات أو اعترافات ، ولكنه بتنازله عن هذه الصفة سيحصل على كل شىء ، ولهذا فهو يقول : يجب .. أن أكون رجلاً مثله ومن طرازه ،

(١) الجبل ص ٩٠ .
(٢) الجبل ص ١٠١ – ١٠٢ .

أتجاهل صفتى كمحقق وأنسى تمامًا حيل التحقيق ومكره[1] .

وهكذا استمع فتحى غانم إلى الرواية الثالثة لقصة أهل الجبل ، وقبل أن يبدأ حسين على روايته كانت المشكلة قد تبلورت فى ذهن فتحى غانم على هذا النحو : إنها اصطدام خطير بين إنسانية صادقة ساذجة حائرة وبين مدنية سطحية قلقة[2] . وقد حصل فتحى غانم على بلورة القضية على هذا النحو بعد مجهود طويل كانت بذرته الأولى موجودة منذ وضع نفسه فى جانب المحققين الشبان غير المتزمتين ، ومنذ وقف موقف المتهكم من السلطات الحاكمة التى كان من المفروض أن يكون أحد أفرادها ، ومنذ بدا له العمدة وحسين على وأهل الجبل أبطالاً عمالقة . وهكذا لم تعد القضية قضية اختلاسات وسرقات من أخشاب وطوب وأدوات البناء فى القرية النموذجية بل ارتفعت إلى مستوى إنسانى وأصبحت فى نظره اصطدامًا خطيرًا بين إنسانية صادقة ومدنية سطحية .

ورواية حسين على أروع الروايات الثلاث ، ما فى ذلك شك ، والقدرة التعبيرية الفائقة التى يمتاز بها هذا الجزء يجعلنا نتساءل عما إذا كان فتحى غانم قد عبّر لنا عن نفسه من خلال شخصية حسين على ، ويجعلنا نتساءل عما إذا كانت شخصية فتحى غانم المحقق لم تكن إلا تغطيةً لتلهينا عن التنبه إلى شخصية فتحى غانم ممثلة فى حسين على ، وكأنما فتحى غانم قد خلخل شخصيته فى قطبى عمله الفنى وهما المحقق والمحقق معه .

وها نحن نعود إلى الليل مرةً أخرى لنستمع من جديد إلى القصة نفسها التى استمعنا إليها من المهندس فى الليلة الماضية ، ولكن هذه المرة فى مستوى كلّه بطولة وكفاح وإصرار وإنسانية أيضًا ، وأعنى بالإنسانية تلك العواطف الصادقة التى تعرف القلق ولحظات الضعف ولكنها تتماسك فى النهاية .

تحدث حسين على عن طفولته مع أبيه ، ومع الخواجاية الفرنسية ، وكيف كان يحلم أبوه بالعثور على كنز فى مقبرة ، وكان الكنز هو حلمه ولكنه « لم يتصوّر أبدًا أنه يحلم ، كأن ما يريده حقيقةً ليس بينه وبين الوصول إليه إلاّ جبل .. وقرر أن يفتّت الجبل »[3] . حتى انهارت الصخور عليه ذات يوم وفقد قدميه . وتتضح المعركة الدرامية فى قمتها بين أهل الجبل والجبل ونحن نستمع إلى هذه الرواية الثالثة ، فهم يكحتون ويكحتون ، والجبل شحيح ، لكنه شحٌّ

(١) الجبل ص ١٠٢ .
(٢) الجبل ص ١٠٦ .
(٣) الجبل ص ١١٠ .

لا يصل إلى الحدّ الذى يصرفهم عنه نهائيًا ، إنه يمنحهم ما فيه من كنوز من حين لآخر مما يبعث الأمل فى نفوسهم على العودة إلى كحته بعد أن أوشكوا على اليأس ، وخلال الكحت تظهر أعراض غريبة على البعض كما ظهر على والد حسين حين بدأ يفقد عقله متخيلاً – وهو المبتور الساقين – أن أهل الجبل سيستولون على الكنز ويحرمونه منه ، حتى يتسلّل ذات نهار داخل الكهف أثناء غياب أهل الجبل ، وهناك يقتل ابنته التى تسللت وراءه ثم يموت بعد أن هشمت رأسه إحدى الصخور . وانصرف حسين عن الكحت مدةً من الزمن ولكنه وجد نفسه يعود إليه أخيرًا لأنهم « لابدّ أن يبقوا فى الجبل ، والبقاء فى الجبل معناه استمرار الكحت .. الكحت هو الخيال الوحيد ، الأمل الوحيد ، لكل من يسكن الجبل » . ويوهمهم الجبل أن به كنزًا فإذا اقتحموه وجدوا مقبرةً مسروقة أو بئرًا يؤكد أن الكنز موجود ولكن لابدّ من بداية الكحت من الاتجاه الآخر . وهكذا يدور الصراع بطوليًا ورائعًا ومستمرًا وفى إصرار بين أهل الجبل والجبل نفسه .

ومن خلال رواية حسين على اتضحت شخصية الخواجاية الفرنسية ودورها الذى تلعبه فى حياة أهل الجبل . ولعل موقف الراوية المحقق منها هو الموقف لموضوعى الوحيد من أشخاص القصة جميعهم ، إنها لا تنتمى إلى السلطة الحاكمة فيحطم قداستها ، وهى ليست من أهل الجبل فينحنى أمام بطولتها ، إن جنسيتها الفرنسية جعلتها خارج المعركة رغم ثورتها على المهندس ، فلم ينفعل المحقق معها أو ضدّها ولهذا قام لها صورتها بغير أن يسبغ عليها من عواطفه شيئًا ، إنها تغرى أهل الجبل بالكحت كلما بدا أن عزيمتهم وهنت فإذا عثروا على شىء اشترته منهم بالثمن الذى يقررونه ، ربما لأنه مهما بالغ أهل الجبل فى الثمن فإن السعر الحقيقى لهذه الكنوز أضعاف ذلك ولو أن المؤلف لا يتهمها بشىء من ذلك ، وهى تنشئ علاقات جنسية مع حسين على ، لعلها لإشباع غريزتها ولعلها لمضاعفة حججها إغراءً فيما يتعلق بضرورة الاستمرار فى الكحت .

ونحن لا نستمع إلى قصة الخواجاية من رواية حسين على فقط ، فقد اضطر فتحى غانم أن يتخلّى عن صفته كأحد شخصيات القصة ، وأن يستعيد صفته كمؤلف يعرف خلجات شخصياته دون أن يرويها له أحد ، وذلك حين أخذ يتحدث عن سهر الخواجاية فى الليلة التى دخل فيها العمدة وحسين السرداب ليفتحا الكنز ، وعن مشاعرها وعلاقتها المضطربة بحسين على . وكانت هذه هى المرة الثانية التى اضطر فيها فتحى غانم أن يستعيد صفته كمؤلف ، أما

المرّة الأولى فكانت عندما وصف ما وقع فى الكهف عندما تسلل والد حسين ثم تسللت وراءه ابنته زوجة العمدة ، فلاشك أن أحدًا من الرواة لا يعرف ما حدث بينهما بالضبط قبل العثور على جثتيهما ، وما كان من الممكن أن يطلع على ذلك إلا خالقها وأعنى بذلك مؤلفها .

أما فتحى غانم كأحد شخصيات قصته فقد أعجب أوّلاً بأهل الجبل ثم تحوّل الإعجاب إلى حبّ والحب إلى تحيّز ، وقد بلغ التحيز قمّته حين نراه يعزو إلى العلم هذا العلاج الأحمق للمشكلة وهو بناء القرية النموذجية يعيش فيها أهل الجبل بغير عمل كأن الرزق سيسقط عليهم من السماء[1] . ولاشك أن العلم برىء وأن الحمق فيمن يطبقونه على هذا النحو .

على أية حال فإنه من خلال رواية حسين على كان موقف فتحى غانم قد وصل إلى نهاية الشوط ، لقد بدأ القصة محقّقًا وها هو ذا ينتهى واحدًا من المتهمين : لو جاء البوليس فلن يأتى للبحث عنى وحمايتى ، بل سيأتى للقبض على وإخراجى من الجبل فأنا لا أريد العودة إلى القرية النموذجية[2] . وفى الوقت نفسه تحوّل الجانب الآخر الذى يمثله المهندس والقاهرة والموظفون إلى تفاهات « كل ما يعرفونه أن مثل هذا الرجل الذى يجلس أمامى حرامى .. حسين على حرامى .. ما أشد غباءهم »[3] .

وقد وجد فتحى غانم أن حسين على « يدلى باعتراف كامل عن جرائمه .. متجاهلاً تمامًا صفتى كمحقق ، وكرجل يقتضيه واجبه وأمانته فى عمله أن يبلّغ فى الحال عن هذه الجرائم . ولكنى لم أتأثر مطلقًا بالأزمة التى تدفعنى إليها اعترافات حسين . كنت قد نسيت صفتى كمحقق وفقدت معنى وظيفتى ولم أعد أفهم مدلولها فى هذا المكان ، لم أعد قادرًا على تصور أفعال حسين على أنها جرائم يعاقب عليها القانون .. إنه ظلم .. ظلم بشع .. لا يمكن أن أساعد عليه ، حتى ولو اتهمت بأنى غير أمين فى عملى .. أتستر على الجرائم ، وأخالف القانون الذى يجب أن أطبقه »[4] . و« الآثار المزيفة التى يصنعونها ويبيعونها للسياح على أنها أثرية ليست مزيفةً ؛ لأنها من صنع أيديهم ؛ لأنها نتيجة عملهم ؛ لأنها ترمز للعمل ، العمل هو الكنز الحقيقى »[5] . وأخيرًا فإن الحكومة ليست حكومتهم لأنها لا تفكر إلاّ فى السيطرة عليهم[6] .

ولهذا فإنه عندما عاد إلى الأقصر وقابل صديقه وكيل النيابة ، كان على وشك أن يروى له

---

(١) الجبل ص ١٥٠ .
(٢) الجبل ص ١٥٠ .
(٣) الجبل ص ١٥٠ .
(٤) الجبل ص ١٥٢ – ١٥٣ .
(٥) الجبل ص ١٧٦ .
(٦) الجبل ص ١٧٧ .

ما شاهده فى الجبل ولكنه يقول : عدلت كأن كل ما سمعته سرّ خاص بى ، لا يصح أن أبوح به لغريب[1] . ذلك لأن فتحى غانم لم يعد فردًا من أفراد السلطة الحاكمة بل واحدًا من المتهمينَ ، وأية غربة تقف بين صاحب الاتهام والمتهم ؟ ولهذا بدا وكيل النيابة غريبًا عنه « كأن لم تكن بيننا صداقة يومًا ما »[2] .

ولهذا عندما عاد إلى إدارة التحقيقات بالقاهرة كان ملف التحقيق خاليًا ، ليس فيه غير شكوى حسين على . لقد عرف أسرار القضية لكنه انضم إلى المتهمين فلم ينقل حرفًا منها إلى الذين ينفذون القانون . ولكن هل تخلّى فتحى غانم حقًّا عن صفته كمحقق . السخرية الثانية فى هذه القصة هو أنه قام فعلاً بدور المحقق وأصدر حكمه ولكن لغير حساب إدارة التحقيقات ، لأنها كانت تريد نتيجةً معينةً من أوّل الأمر لم يصل إليها المحقق فتحى غانم ، وهى تزوير مشاكل أهل الجبل وطمس كل الحقائق وتحويلها إلى أسئلة سخيفة[3] . ولكنه أعلن محضر التحقيق بعد مضى سبع سنوات ، أعلنه فى قصة « الجبل » على جمهور القراء .

ذلك أن فتحى غانم نشر قصته « الجبل » تباعًا فى إحدى المجلات الأسبوعية المصرية عام ١٩٥٨ ثم جمعها فى كتاب نشر فى فبراير عام ١٩٥٩ . ولكنه فى بداية القصة يقول : حدث منذ أكثر من سبع سنوات .. ولما كانت القصة – بالنسبة للمحقق – لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، فمعنى هذا أن أحداثها وقعت حوالى عام ١٩٥١ ، وإن كانت كتابتها أو نشرها لم يتم إلا بعد ذلك بسبع سنوات .

وقبل عام ١٩٥٨ بنحو عشرين عامًا ظهرت قصة أخرى كان موضوعها يدور حول محقق يقوم بالتحقيق فى قضية مقتل « قمر الدولة علوان » وكان عنوان القصة « يوميات نائب فى الأرياف » للأستاذ توفيق الحكيم . ومن غريب الاتفاق أنه كتبها ونشرها بعد ست سنوات من وقوع أحداثها ، فقد نُشرت عام ١٩٣٧ وهى تعبّر عن قطاع من الحياة المصرية ما بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣١ . أما أحداثها فقد وقعت بالنسبة لمؤلفها فى اثنى عشر يومًا .

ولما كان المحقق فى كلٍّ من القصتين هو المؤلف نفسه بالإضافة إلى تشابه الموضوعين ، فإنه من اليسير أن نعقد مقارنةً بين العملين الفنيين اللذين فصل بينهما عشرون عامًا ، ولنعرف أين

---

(١) الجبل ص ١٨٥ .
(٢) الجبل ص ١٨٥ .
(٣) الجبل ص ٨٩ .

وقف توفيق الحكيم وأين وقف فتحى غانم ، وما سبب كل من الوقفتين والنتائج التى ترتبت على ما بينهما من اختلاف .

ونحن نستطيع أن نلخص موقف فتحى غانم بأنه موقف المحطِّم لقداسة السلطة الحاكمة وأنه انضم إلى جانب الذين ذهب ليحقق معهم ، وكانت النتيجة أنه استطاع أن يحصل على اعترافات « المتهمين » ولكنه لم يبلغ السلطة شيئًا مما حصل عليه وإن أبلغه لجمهور القراء .

أما موقف توفيق الحكيم فى يومياته فقد كان موقف الساخر من الجميع ، من الذين يطبقون القانون ومن الذين يُطبَّق عليهم القانون ومن القانون نفسه ، لم يُكِن عاطفة مودّة أو احترام لأىّ طرف من هذه الأطراف الثلاثة . واليوميات من أولها إلى آخرها شَواهد على ذلك .

فالقائمون على تنفيذ القانون يمثّلهم توفيق الحكيم بقاضيين متناقضين ولكنها فى النهاية صورة ساخرة لما يجب أن يكون عليه القاضى ، فهما يتناوبان العمل ولكن أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أوّل قطار ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة المتجـة إلى القاهرة ، مهما بلغ عدد القضايا . والثانى يقيم بدائرة المركز ولكنه ذو وسواس ، يبطئ فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ، فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سُمِّرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . هذا فضلاً عن سخريته من المأمور وسخريته كذلك من القاضى الشرعى وما يتقبله من رشوة . بل إن توفيق الحكيم يسخر من نفسه ومن جميع القائمين على تحقيق العدالة حين يقول : أنا ملاذ العدل ، أين هو العدل ؟ إنى لا أعرفه ولم أره .. لأن أحدًا لم يعطنيه ، إنهم يطلبون إلىّ أن أنظر فى شكاوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر فى شكواى وشكوى المئات من زملائى [1]

ثم هو يسخر من القانون وقد عبّر عن ذلك فى أكثر من واقعة ذكرها ، ويكفينا أن نذكر المتهم الذى جىء به أمام القاضى بتهمة غسل ملابسه فى الترعة ، وقد تساءل المتهم عما إذا كان هناك مكان آخر يغسلها فيه ، فتردّد القاضى وفكّر ولم يستطع جوابًا ؛ ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضًا يصبّ فيها الماء المقطَّر الصافى من الأنابيب ، فهم

(١) توفيق الحكيم . يوميات نائب فى الأرياف ، كتاب الهلال ، القاهرة ، العدد ٥١ ، يونيه ١٩٥٥ ، ص ١٨٦ .

قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون استُورِد من الخارج على أحدث طراز »[1] .

ورغم إدراك وكيل النيابة توفيق الحكيم هذه الحقيقة إلا أنه لا يعطف على المتهمين ، فعندما التفت القاضي إليه قال له : النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون . وكان أن حُكم على الرجل بغرامة قدرها عشرون قرشًا[2] ثم يعترف توفيق الحكيم قائلاً : ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو ، ولم أر واحدًا من المخالفين قد بدا عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غُرم وقع عليه من السماء كما تقع المصائب ، وإتاوة يؤدّونها لأن القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدّوها . ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعًا والمذنب لا يدرك مطلقًا أنه مذنب ! »[3] .

وفى موضع آخر يقول : « القانون عندى قبل كلّ شىء مسألة قانون »[4] .

ولكن المحقق توفيق الحكيم لا يتهكم على ممثلى السلطة الحاكمة ولا على القانون أداة هذه السلطة فقط ، بل هو يسخر أيضًا من الشعب الذى يطبق عليه هذا القانون ، فهو يتحدث عن نفسه وقد جلس ممثلاً للاتهام فى المحكمة والقاضى ينظر فى قضايا مخالفات لذبح خرفان خارج السلخانة فنراه يقول : وجعلت أروّح عن نفسى بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة ... وقد ملأوا المقاعد و « الدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات .. فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح : فهّمونى الحكاية ؟ الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة ؟ ثم يسخر توفيق الحكيم من الحاكم والمحكومين على السواء حين يقول : وحملق – أى القاضى – فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الرابض على طرف أنفه ، ولم يفطن أحد – ولا هو نفسه – لما فى هذه العبارة من تعريض[5] .

وهؤلاء الأغبياء – كما يعتقد المحقق – لا يمكنهم لغباوتهم طبعًا أن يلقوا أىّ ضوء على القضية الغامضة ، وهنا تتضح لنا العلاقة الحيّة بين السخرية بالناس وفشل التحقيق ، فالمحقق

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٤١ .
(٤) يوميات نائب فى الأرياف ص ٧٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٨ – ٣٩ .

يحضر إحدى الجارات ليعرف منها اسم خاطب « ريم » أخت زوجة المجنى عليه قرّ الدولة علوان ، ويصف المحقق توفيق الحكيم هذه الجارة بأنها كثيرة الكلام بحيث قلبت دماغه بالكلام الفارغ ، وهى إلى جانب ذلك عمشاء تنظر إلى الواقفين فى عملية العرض لإخراج الخاطب بعينيها « العمشاء » نظرة « العرضحالجى الأضبش » إلى عريضة يرفعها فى يده حتى تمس أنفه[1] وكان من الطبيعى ألا تستدلّ على الخاطب ، فازداد احتقار المحقق لها حتى أنه لم يتمالك أن صاح : اخرجى يا « قرشانة » يا « وحشة » يا « قليلة الحيا » ضيعت نهار بحاله ، إخص على دى شهود .. ثم يغمم سخريته – وبالتالى يزداد غموض القضية – حين يقول : وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضى أو من يعرف شيئًا عن الموضوع فصرفتهم[2] .

وكانت النتيجة الطبيعية والمنطقية لهذا الموقف المنعزل عن الجميع أن قضية مقتل قرّ الدولة علوان ظلّت قضيةً مغلقةً على المحقق . يقول وكيل النيابة توفيق الحكيم فى أول يومياته : إنى منذ قرأت « الإشارة » أدركت أن القضية ميتة ، وهل أستطيع أنا بتحقيق أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل علىّ الشهود بالصدق وتعاوننى الأهالى بالرغبة والإخلاص ، فأى محضر فى الوجود يوصلنى إلى التشرف بمعرفة جانٍ من الجناة ؟[3] .

والواقع أنه لا يمكن لشهود أغبياء وأهالى مواشٍ فى نظر المحقق أن يعاونوه ، ولكن هل كان الشهود حقًّا كما كان يتصورهم المحقق توفيق الحكيم ؟ أليس من المحتمل أن هذه المسافة التى تقوم بينهم وبين المحقق هى التى تحملهم على الحذر والحرص منه ، وتجعلهم يحسّون أن أى اعتراف سيدلون به قد يعود عليهم بالضرر ؟ إن شهودًا أمّيين ريفيين لا يستطيع محقق مثقّف أن يحصل منهم على دليل واحد لابدّ أن يتّصفوا بالعناد والذكاء وإن كان الاعتراف بذلك أمرًا شاقًّا على المحقق .

حتى الشيخ عصفور الذى يصفه المحقق بالعته[4] هو الذى يقوم بتهريب ريم عند القبض عليها وهو الذى يهرّبها مرةً أخرى بعد أن لمحها المحقق معه عند المستشفى الأميرى ، وعندما يُقبض عليه لا يستطيع المحقق الاستدلال على شىء من أقواله فيُضطر إلى الإفراج عنه ، وعندما

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٥ .

يحاول أن يستدرجه ويغريه بتزويجه من رِيم يسخر المعتوه من المحقق العاقل قائلاً :

نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب
وديل الكلب ما ينعدل ولو علقوا فيه قالب

وأخيرًا يعترف المحقق بالهزيمة أمام هؤلاء « الأغبياء المواشى » وتنصرف نفسه عن القضية وأصحابها[1] ، وفى النهاية يقول كأنما فى غيظ : فتذكرت أن الفاعل فى هذه القضية لم يُعرف . لم يُعرف . طبعًا لم يُعرف ولن يُعرف[2] . وهكذا كتب فى ذيل المحضر التأشيرة المعهودة : تُحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل[3] .

وهكذا نجد أن المتهمين فى كلٍّ من يوميات نائب فى الأرياف وفى قصة الجبل متفقون على عدم التعاون مع السلطة الحاكمة وممثليها والوقوف منهم موقف المتهرب أو المعاند ، وقد انتهت القصتان إلى نتيجة واحدة وهى أن السلطة الحاكمة لم تحصل على أية معلومات تدين المتهمين . ولكن الاختلاف بين العملين هو أن محقق يوميات نائب فى الأرياف اتخذ موقف المتهكم على ممثلى السلطة والمحكومين على السواء ، بينما محقق الجبل تهكّم على ممثلى السلطة لينضم إلى المتهمين ، وكانت نتيجة هذا الاختلاف أن محقق يوميات نائب فى الأرياف لم يحصل على أية معلومات بالنسبة لقضيته ، بينما حصل محقق الجبل على كلّ الاعترافات المطلوبة وما وراءها من معلومات نفسية واجتماعية ومادية ، وإن لم يبلغ رؤساءه منها شيئًا .

ولاشك أن هذا الاختلاف الأساسى بين القصتين يرجع إلى اختلاف الظروف المكانية والزمانية وتفكير كل من المؤلفين أو المحققين .

فمن ناحية المكان نجد أن يوميات نائب فى الأرياف تتناول بيئةً ريفيةً فى الوجه البحرى ، هذه البيئة التى وصف توفيق الحكيم أهلها – من وجهة نظره – بأن فيهم نقصا خِلْقِيًّا مضافًا إلى ما بهم من أمراض جثمانية وفكرية واجتماعية كثيرة . وأنهم قليلو المقدرة ، ضعيفو الثقة بالنفس ضعفًا منشؤه اشتغالهم بأعمال العبيد من قديم فى الأرض والزراعة وترك الفروسية للمغيرين [4] . أما قصة الجبل فتتناول بيئة جبلية فى الصعيد لم يصل إليها كثير من أقدام المغيرين ، ولعل لمشاهدة أهل الجرنة للسياح أثرها فى صمودهم هذا الصمود الإيجابى أمام السلطات ، فهم

(١) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٤٢ .

يشاهدون بين هؤلاء القادمين الغرباء من هم أوفر مالاً أو أعظم هيبةً من أفراد هذه السلطات مما يقلل من شأنهم فى نفوسهم .

أما من ناحية الزمان فقد عبّرت يوميات نائب فى الأرياف عن ريف مصر ما بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣١ ، أيام الأزمة الاقتصادية التى طحنت العالم وقتئذ وأيام الإرهاب الذى فرضه محمد محمود ومن بعده صدقى على البلاد . وتزييف الانتخابات التى يشير إليها توفيق الحكيم فى يومياته إنما هى الانتخابات التى أجراها صدقى وزيّفها ليحصل حزب الشعب الذى ألّفه على الأغلبية . وتوفيق الحكيم لا يغفل عن هذا ، فهو يربط بين نتيجة قضيته والأوضاع الاجتماعية والفكرية فيقول : إن العدل والشعب .. إلخ . كلمات لم يزل معناها غامضًا عن العقول فى هذا البلد . كلمات مهمتها أن تُكتب على الورق وتُلقى فى الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التى لا يحسّ لها وجود حقيقى . فلماذا يخطر منى أن آخذ على سبيل الجدّ روح « سى قر الدولة علوان » ؟ إن هذا المجنى عليه قد مات وانتهى مثل غيره من مئات المجنى عليهم فى هذا المركز والمراكز الأخرى فى القطر ، ذهب دمهم جميعًا أرخص من المداد الذى جرت به محاضر قضاياهم »[1] .

أما قصة الجبل فقد وقعت أحداثها عام ١٩٥١ ، وهو العام الذى كانت مصر تغلى فيه بالثورة على النظام الملكى ؛ ولهذا لم يكن مستغربًا من العمدة أن يصرح قائلاً : شوف يا ابنى ، أنا لا يهمنى المهندس ولا الحكومة ولا الملك كمان . فهذه المقاومة الإيجابية إذن من أهل الجبل من ناحية وانضمام المحقق إلى المتهمين من ناحية أخرى لم يكن أمرًا شاذًّا عام ١٩٥١ ، فقد كانت المظاهرات ضدّ نظام الحكم تعمّ القطر فى ذلك الوقت ، كما كان كثير ممن يمثلون السلطة الحاكمة قد انضموا إلى الشعب ، ولم يعودوا يتعاونون مع الحكومة التى يمثّلونها ، ولم يكن المحقق فتحى غانم سوى رمز لهؤلاء .

ولعل هناك أخيرًا سببًا يتعلق بشخصية كل من توفيق الحكيم وفتحى غانم وموقفهما من المجتمع الذى يعيشان فيه ، فتوفيق الحكيم أميل إلى العزلة . وقد برهن أكثر ما كتبه بعد عودة الروح على أنه يفضل ويجيد معالجة القضايا معالجةً فكريةً حتى لقد أطلق على مسرحه اسم المسرح الذهنى وهو الذى وصفه بأنه المسرح الذى يقيمه داخل الذهن ويجعل فيه الممثلين أفكارًا تتحرك مرتديةً أثواب الرموز . ولعل لهذا أثره فى موقفه كمحقق فى يومياته حين نراه

(١) يوميات نائب فى الأرياف ، ص ١٦٨ .

لا يستطيع أن يندمج مع المتهمين رغم إدراكه وتهكّمه على القانون وعلى القائمين بتنفيذه .

أما فتحى غانم فإنه يضع نفسه فى أوّل صفحات قصته مع الذين يقول عنهم مدير التحقيقات : أنا عارف كويس أفكارهم اللى حتخرب البلد .. بس فالحين تقولوا على نفسكم إنكم متحررين ، وإننا ناس بتوع زمان ، أيامنا انتهت وخلاص واحت علينا[1] . وهذا هو ما ذكرناه فى أول مقالنا موضحين أن فتحى غانم يريد أن يؤكد أن اختلاف عقلية المحقق تتبعها بالضرورة اختلاف نتيجة التحقيق .

وهكذا خطا فتحى غانم فى قصته الجبل خطوةً أخرى بعد وقفة توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف ، وقد عاونه على ذلك – بطريق غير مباشر – عشرون عامًا فصلت بين أحداث القصتين وطوّرت عقلية المحقق والمتهمين على السواء وبالتالى طوّرت عقلية الكاتب ومخلوقاته . كما ساعده على ذلك – بطريق مباشر – قراءته لليوميات ، فهو – بلا شك – مدين لها بهذه الخطوة التى خطاها عن قصد ووعى .

---

(١) الجبل ، ص ٧ .